حجاجيّة ملفوظ الشّفاعة – من شراك اللّغة إلى مأزق التأويل–

The argumentativeulterrance of intercession-from the trap of language to the impasse of interpretation-

راضية مالك*

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف،

(الجزائر)

malekradia7@gmail.com

رشيد حليم

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف،

(الجزائر)

Halimrachid@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021-07-06 تاريخ القبول: 2021-11-12

ملخص:

الشّفاعة ملفوظ عقائدي، و حدث فكري،و خطاب معرفي انجذب إلى بيئات الجدل، وهو الموضوع الذي تُسائل فيه مقالتي بعض المتجادلين على وثوقيّة هذا الخطاب، من منظور لساني تأويلي.وفي هذا التورّد العلمي، تعالج مقالتي إشكالية ملفوظ الشّفاعة ضمن مقاربة لسانيّة، تصنع فيها هذه اللّفظة القرآنية جدليّة تأويليّة لينفتح النّص المعجز فيها على ثنائيّة القبول والرّفض، ضمن قراءة تأويليّة تشملغرضين:أوّلهما هو مصطلح الشفاعة من منظور لساني وضعي واصطلاحي،أمّا الثّاني فخصّص لتأويليّة خطاب الشّفاعة، إثباتا ونفيا.

ليجلي هذا الملفوظ عن مناظرة معرفيّة تعمل فيها الأدلّة اللّسانيّة على إثبات الشّفاعة وإنكارها، ليصبح هذا التوجيه مركز التّخريج المذهبي بالاعتماد على التّأويل و آلياته.

الكلمات المفتاحية: شفاعة؛ تأويل؛ خطاب؛ حجاج؛ ملفوظ.

Abstract :

In this scientific purpose, my article simplifies the discussion of a problem related toth' ulterance of intercession within a linguistic approach in which the Quranic word is made in which an interpretive dialectic is opened to the miraculous text on the dichotomy of acceptance and rejection, within a balanced analytical formation in two purposes:

The first is the term intercession from a positivistic and idiomatic linguistic perspective, while the second is devoted to the interpretation of the discourse of intercession, affirmation and denial.

To clarify this ulterance from an epistemological debate in which linguistic evidence works to prove and deny intercession, this directive becomes the center of doctrinal graduation based on interpretation and its mechanisms.

KeyWords: Intercession ;Interpretation ; Discourse ; ulterance ;Argumentation.

*المؤلف المرسل

المقدّمة:

حفل الفكر العربي عبر مساحاته الحضاريّة بمساءلة كثير من قضايا الوجود، و مسائل الغيب، وممارسة رياضة إعمال العقل وصناعة الجدل في إغراء المتلقّي بثنائيّة الإقناع، قبولا ورفضا.

وموضوع الشفاعة حدث معرفيّ أوجدته ثقافة العقل و النّقل، و أوعزته إلى الوسط اللّساني ليمارس سلطة القراءة في أحنائه، ويتسلّق متنافسوه سلالم المحاججة،استراتيجيّة خدومة لتورّدهم المذهبي.

و خطاب الشفاعة من السّمعيات الغيبيّة الّتي حدّث بها اللسان العربي في مستخلصه المعجز و مأثور الحديث الشريف،فصدّر هذا الغرض بوتقة الحجاج و التّلاسن في جدوى إثباته و استردائه، فكان التّساند إلى سلطان العقل وجيها في معارضة قرائن النقل و السّماع.وأصبح هذا الخطاب صناعة تأويليّة تعنى بها الدّراسات الحديثة بمختلف مشاربها العلميّة.

تقوم إشكالية مقالتي في جانبها التّحليلي على مسألة المقدّرات التأويليّة للملفوظ العربي و استجابته لهذا الخلاف.كماتستفهم عن فاعليّة الأدلّة اللّسانيّة الّتي عوّل عليها الفريقان المتجادلانفي إثبات هذا التوّجه العقائدي و نفيه.

جوابا على ما تقدّم من استفهامات، حللنا اتّجاهين مذهبين متعارضين في موضوع الشّفاعة،يرفع المعتزلة لواء أهل العقل بأدلّتهم، ويرفع منافسوهم راية النّقل بحججهم ، فكان الاتّجاه الأوّل نافيا و الثّاني مصدّقا.

I. مصطلح الشفاعة من منظور لساني وضعي واصطلاحي:

1. الشفاعة من منظور لساني وضعي:

يتّفق بعض محقّقي اللّغة على أنّ المعنى المحوري للشّفاعة هي إلحاق شيء بآخر لغرض الإعانة و الانضمام و الزيادة قصد تحقيق مآرب المشفّع له، أو مساندته للوصول إلى غايته، و قضاء حاجته.

الشّفاعة كلمة ليست غائبة عن المنطوق العربي، حيث أبانت بعض معاجم العربيّة القديمةعن اشتقاقها الايتيمولوجي، فهي مصدر شفع، يشفع، شفاعة، و الشّفع ما كان من العدد أزواجا(ابن منظور، د.ت). و الشّفع هو الزّوج خلاف الوتر لقوله تعالى:﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر 3]. والشّافع: الطّالب لغيره فهو يطلب الشّفاعة لصاحبه، والشّافع المعين(الفراهيدي، د.ت).واستشفعته إلى فلان أي سألته أن يشفع لي إليه، وتشفّعت إليه في فلان فشفّعني فيه تشفيعا(الجوهري، 1987).والشّفاعة هيالمطالبة بوسيلة أو ذمام(ابن فارس، د.ت).

ليستقرّ المعجم على أنّ المعنى الوضعي للشّفاعة يتعلّق بطلب المساعدة الّتي يقدّمها الآخر معنويّا أو ماديّا .

2. مصطلح الشفاعة و دلالته في النّص القرآني:

وردت مادّة الشّفاعة في القرآن الكريم بمختلف صيغها الاشتقاقيّة في إحدى وثلاثين موضعا في تسع عشرة سورة، منها سبع عشرة سورة مكيّة وفي سورتين مدنيّتين؛ فموضوع الشّفاعة ناموس من نواميس العقيدة الإسلاميّة،لذلك ركّزت عليه الآيات المكيّة الّتي تهدف إلى تثبيت العقيدة الصحيحة في قلوب المسلمين.

كما وردت لفظة الشّفاعة صراحة، فقد وردت ضمنيّة من خلال مفاهيم أخرى أوّلت على أنّها تحمل معنى الشّفاعة، وهذا ما يطلق عليه بالنّظائر(الزركشي، 1957)، من ذلك: المقام المحمود، النّفع، النّصرة، القربى، المغفرة، العطاء، وغيرها من المصطلحات.

1.2. المقامالمحمود:ويقصد به المنزلة العليا و المرتبة الرّفيعة، منه قوله تعالى:﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء79] وقد ذهب جمهور المفسرينإلى أنّ مراد الآية بالمقام المحمود هو الشّفاعة.

2.2. زلفى: ويقصد بها معاني القرب، أو التوسّط،و الإيحاء بهذا المصطلح يعني أنّ بعض الأولياء يحملون توصيفات قدسيّة، ويمتلكون كرامات مشهودة، أملت على عبادهم أن يعتقدوا فيهم أنّهم قادرون على إنقاذهم بالشّفاعة، و الحجّةمن قوله تعالى﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر3]. عقّب الشّوكاني على هذه الآية بقوله:"والّذين لم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيرهقائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء، إلّا ليقرّبونا إلى الله تقريبا، والضّمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء الّتي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام"(الشوكاني، 1414هـ)أي يعبدونهم ليكونوا لهم شفعاء عند الله يوم الحساب.و هذا ما ذهب إليه أبو السعود في تفسير قوله تعالى:﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾[الأحقاف28]فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ؛"فهلّا نصرهم وخلّصهم من العذاب الّذين اتخذوهم آلهة، حال كونها متقربا بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى، هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وفيه تهكّم به"(أبو السعود، د.ت)

3.2.النّصرة: لفظ النّصرة، أو التّناصر، مقصود به المعاونة من الغير،أو من فريق حميم يدفع عنهم الهلاك بالتوسط إلى ربّهم بالشّفاعة، والمعنى رديف المفهوم الأوّل،و الاستدلال من النّص المعجز قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[آلعمران90]وبدأ هنا بالشفاعة، لأنّ ذلك أليق بعلوّ النّفس(أبو حيان الأندلسي، 2001).

ففي هذه الآية توجيه إلى خطاب العذاب الّذي ينتظر مصير من مات كافرا و لم يتب، بأنّه مبعد عن رحمته تعالى، و سيلقى عذابا موجعا مؤلما، و لن يجد يوم القيامة قريبا و لا حميما و لاصديقا ينصره و ينقذه و يشفع له عند الله و يمنع عنه العذاب..

4.2.النّفع:من معاني الشّفاعة النّفع الواردة في قوله تعالى:﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[سبأ42]. قال القرطبي أي؛ شفاعة ونجاة و(لا ضرّا) أي؛ عذابا وهلاكا(القرطبي، د.ت).واستعان القرطبي بما يوفّره اللّسان العربي من توجيه بياني، من حيث التّقديم والتّأخير، فأشار إلى أنّ لفظ النّفع مقدّم في حيز النّفي، لإبطال تمسّكهم وقطع تعلّقهم بشفاعة الأنداد والأوثان، وعطف نفي الضّر على نفي النّفع للدّلالة على سلب مقدرتهم على أيّ شيء(ابن عاشور، 1984).

II. تأويليّة خطاب الشّفاعة بين النّفي والإثبات:

وردت في القرآن الكريم آيات تفيد نفي الشفاعة، وآيات أخرى تنص على إثباتها، ووردت أحاديث نبويّة تثبت الشفاعة إثباتامطلقا.وهذا الاختلاف الظاهري حمل بعض الفرق الإسلاميّة قديما كالمعتزلة وبعض المفكّرين حديثا على القول بنفي الشفاعة.

لجأ المعتزلة إلى تأويل آيات الشفاعة حتّى تساير مذهبهم الاعتزالي، وأنّ الله سيحقّق وعيده في العصاة الموحّدين والمذنبين غير التّائبين. وعلماؤهم لا يختلفون مع المسلمين على أنّ النبيصلّى الله عليه وسلّم هو الشّافع المشفّع يوم القيامة، وأنّ الشّفاعة ثابتة بالكتاب والسنّة، واتّفق أهل السنّة والجماعة على إثباتها في أصحاب الكبائر الّذين ماتوا ولم يتوبوا من ذنوبهم، في حين خالفهم المعتزلة؛ وقالوا بجواز الشفاعة للمؤمنين مرتكبي الصغائر من الذنوب فقط دون مرتكبي الكبائر. فحسب رأي أحد علمائهم أنّه لا خلاف بين الأمّة في أنّ شفاعة النبي صلى الله عليه وسلّم ثابتة للأمّة، وإنّما الشّفاعة للتّائبين من المؤمنين فقط دون الفساق من أهل الصلاة.(ابن عاشور، 1984)وهو موقف غاض علماء السنّة، فقد نهض شيخ الإسلام ابن تيمية منافحا عنهم، طاعنا في معتقدات أهل الاعتزال ،مؤكداأنّ الخوارج والمعتزلة يحطبون في حبل مشترك، حيث ينكرون صراحةشفاعة محمّد صلى الله عليه وسلّم في أهل الكبائر قبل دّخولهم النار وبعدها(ابن تيمية، 2005). والّذي حملهم على هذا الاعتقاد قولهم بحضور الإنسان في منزلة بين منزلتين، فمرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر،فهو ليس بموحّد ليشفع فيه، وليس بكافر ليستحق الخلود في النّار،لكن يستحق عقوبة أخف. وسمّوا هذا النمط وعدا و وعيدا. وهي مؤشرات تناصرهم إلى أصولهم في الاعتزال وتأويلاتهم في إنكار الشفاعة(الشهرستاني، 1317هـ).

وعلى نهج المعتزلة سار بعض المفكّرين حديثا، وعملوا على تنشيط هذا التواصل المعرفي الذي أصّلته دراسات المعتزلة وأهل السنّة حتى تحول موضوع الشفاعة إلى صراع فكري يتجاذبه كلّ طرف من الزّاوية التي تحقّق مقاصده. إذيعتقد مصطفى محمود أنّ خطاب الشفاعة ولّد فوضى الوسايط، وهي تسيء للقرآن. وهو ممّن أنكر حصولها لما يحمل طابعها من اتّكالية ظاهرة؛ "فالشّفاعة بمعنى هدم النّاموس وإخراج المذنبين من النّار وإدخالهم الجنّة....فهي فوضى (الوسايط) الّتي لا نعرفها في الدنيا...ولا وجود لها في الآخرة...(محمود، 1999). وهذا الفهم إنما جرّه السّياق الثقافي المعاصر الّذي استخلصه الباحث ممّارآه من روح منهزمة، أو هو هروب إيماني،ذلك أنّ المسلمين الّذين عرفوا بالاتّكالية والأماني من يمسح عنهم بالوعظ والفتوى ما جنوه من قبح الأعمال، قد باتوا يفعلون كلّ منكر ويرتكبون عظام الذنوب اتّكالا على نبيّهم الّذي سوف يخرجهم في حفنة واحدة من النّار، ويلقي بهم في الجنّة بفضله وكرمه(محمود، 1999).

وتصدّى مصطفى محمود بالنّكير للأحاديث النبويّة متعلّلا بما قاله النّحاة في رفض الاستدلال بالحديث الشريف لأنّ روّاته بشر غير معصومين، فهي معرّضة للزيادة والنّقص خاصّة أنّها لم تدوّن إلّا بعد الخلفاء الراشدين، وهو بقوله هذا لايقصد الطّعن في السنّة بل يحث على ضرورة إخضاعها للتحكيم العقلي، مصرحا أنه لم ينكر السنّة ولم يثر فتنة ولم يخرج على الإجماع فهو يطرح إشكاليةدقيقة مفادها، كيف يتصوّر المسلمون أنّ لهم استثناءات

في الآخرة، وأنّ المسلم لن يدخل النّار ولن يخلّد فيها(محمود، 1999)والقرآن يقول في محكم آياته﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[النساء14]

واستند الدكتور مصطفى إلى رأي الشيخين محمد عبده والمراغي اللّذين يتفقان مع رأيه، وذهب مذهب المراغي في تفسيره للشّفاعة بأنّها ميزة يختص بها الله من يشاء من عباده عبّر عنها بلفظة شفاعة ولا ندرك حقيقتها.

من خلال ما ذكر، يبدو أنّمصطفى محمود سار على مسلك المعتزلة في إنكار الشفاعة في العصاة من المؤمنين، معتمدا في ذلك على أدلّتهم العقليّة والنقليّة والقول بتنفيذ الوعيد. و عند تبنّيه هذا الرأي أتهمه علماء أهل السنة و الجماعة بأنّه سلك منهج المعطّلين المشبهين من المعتزلة والمتكلّمين عندما عطّلوا الأدلّة بحجّة نفي الشبه عن الله، فجمعوا بين جريمة التمثيل والتعطيل ولما حوصروا اضطرّوا التأويل بغير دليل.

III. الآليات الحجاجيّة في تأويلية خطاب الشفاعةبين النفي والإثبات:

تعتبر فرقة المعتزلة أشهر من أنكر بعض مقامات الشّفاعة، لتنافيها مع سلطة العقل الّذي هو مرجعيّتهمفي الاستدلال المعرفي وفق مقتضيات الوحي،فكان عمل العقل عندهم قائما على تأويل بعض ملفوظات اللسان داخل النّص المعجزّ عملا تأويليّا،حيث يحدّد من خلاله مدركهم العقلي –للفهم والتأويل–مساحة العمل وكيفيّتها.كما لم يأخذوا بالأحاديث النبويّة الّتي تتضمن موضوع الشّفاعة لأنّها آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في العقائد والغيبيات، و"إنّما يعمل بأخبار الآحاد في فروع الدين، وما يصح أن يتبع العمل به غالب الظن، فأمّا ما عداه فإن قبوله فيه لا يصح، وكذلك لا يرجع إليه في معرفة التوحيد والعدل وسائر أصول الدين."(القاضي عبد الجبار، د.ت)فاقتصروا على النّص القرآني دليلهم والعقل مرشدا لهم. فاحتجّوا بآيات الوعد والوعيد في القرآن الكريم الدالّة على عموم تعذيب أصحاب الذنوب والمعاصي في النّار، وعدم إخراجهم منها، وإنّ هذا يدل على ثبوت نفي الشفاعة يوم القيامة لأهل العذاب. وأوّلوها لما يخدم مذهبهم ويقوّي شوكته. واعتمدوا على التأويل بشطريه اللّغوي والدّلالي في الوصول إلى غايتهم. ولنضرب بعض الأمثلةالتأويلية ومخرجاتها:

1. **التأويل النحوي**: ويقصد به الأدوات النحوية التي عوّل عليها في الاستدلال على نفي الشفاعة وإثباتها، منها:

1.1.القولبدلالةأل

العهدية:تفيدألالعهديةالتعريف،ومنمعانيهاإفادةالاستغراقفيالوصف،والحجّةفيهذاالتأويلالنّحوي،فيقولهتعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف74]يقولالقاضيعبدالجبار: "إنّ المجرم يتناول اسم الكافر والفاسق جميعا، فيجب أن يكونوا مرادين بالآية معنيين بالنّار.ثمّ قال: الكلام في أنّ اسم المجرم يتناول الكافر والفاسق جميعا ظاهرا في اللّغة والشرع جميعا، أمّا من جهة اللّغة، فلأنّ الدّلالة متقاربة بين قولهم مذنب، وبين قولهم مجرم لزناه وبين فاسق لزناه."(القاضي عبد الجبار، د.ت)فالمجرم هوقد استغرق في صفة الاجرام و صفة الاغراق في الذنوب .فهذه

طائفة تشملها صفة واحدة مشتركة و هو ما أبانت عنه ال العهدية في لفظة المجرم و هو ما ذهب اليه العلامة الألوسي في تفسيره حيث اكد على المرجم هو المستغرق في الاجرام و هو المتلبس به و الكامل فيه و لا يكون الا كافرا،"إنّ المجرمين أي الرّاسخين في الإجرام الكاملين فيه، وهم الكفّار"(الألوسي، د.ت).

2.1. الوظيفة الإعرابية:ويقصد بها التوجيه الإعرابي للتركيب الإفرادي النّحوي من خلال تخالف الحركة الإعرابية كما ترى في توجيه ابن جني[ت392] للكلمة القرآنيّة (نردّ) من قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[الأعراف53]؛فقدانبنى رفضهللشفاعة على قراءتي آية الأعراف عدة تقديرات من الإعراب(أبو حيان الأندلسي، 2001)، و المعنىأنّ نصب الفعل﴿نردّ﴾ بالعطف على يشفعوا، وهو منصوب لأنّه جواب الاستفهام وفيه معنى التميّز، وذلك أنّهم علموا أنّه لا شفيع لهم،وإنّما يتمنّون أن يكون لهم هناك شفعاء. وتقديره مع رفع﴿نرد﴾على قراءة الجماعة: إن نرزق شفعاء ويشفعوا لنا، وإن نردُّ فنعمل غير الّذي كنّا نعمل،أي على تقدير التركيب الشرطي الذي يوجبه السياق، أي إن نردّ فنعمل غير الّذي كنّا نعمل.(ابن جنّي، 1999)

سار ابن جني على خطى أصحابه من المعتزلة، فنفى وجود الشفاعة، مستعينا بآلياته النحويّة؛ فالفرق بين قراءتي الرّفع والنّصب في الفعل﴿نردّ﴾ مآلها واحد؛ عدم وجود الشفاعة،فمع الرفع تمنّوا وجود الشفعاء والرّد إلى الدّنيا، وعمل ما لم يكونوا يعملونه، وقراءة نصب الفعل نرد تمنّوا وجود الشفعاء وحدهم، ولكنّهم قطعوا بأحد الأمرين إمّا الشّفاعة أو الردّ على الخيار(سعد محمد، 1997) ، وهذا الأمر غير حادث بالإمكانلأن أمانيهم لا تتحقّق.

3.1.التقديم و التأخير:مسلك أسلوبي له عدة معان منها التخصيص كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر44]فتقديم الخبر على هيئة شبه الجملة (لله) و تأخير المبتدأ (الشفاعة) يفيد التخصيص، و على ذلك يكون المعنى لله وحده الشّفاعة لا لأحد غيره، و لا يوجد شيء خارج عن إذن الله و إرادته، أمّا قوله تعالى (جميعا) فيدلّ على أنّ هناكأنواعا متعددة للشّفاعة.(ابن العثيمين، 1424هـ)وأنّ الله خصّ بها نفسه ولم يملّكها لمن خلق من البشر والملائكة.وهذه البنية الأسلوبيّة تنهض دليلا لسانيّا على نفي الشّفاعة لغير الله.

2. **التأويل الدّلالي**:وهو تأويل لساني مبني على اشتراك اللّفظمن حيث المساواة في الدّلالة ومخالفتها، وهو ما احتجّ به الفريقان نفيا للشفاعة وإثباتا لها.

1.2. **مدلول لفظة الفجار**: أوّل المعتزلة لفظة الفجّار في النّص القرآني على تقدير، هم المخلّدون في النّار تماشيا مع قاعدتهم في الوعد والوعيد تأكيدا لامتناع حصول الشّفاعة فيهم،ولو كانوا من أهل الصّلاة.واستدلّوا بصريحقوله تعالى:﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[الانفطار14]. حيث تدلّالآية على أنّ الفاجر وإن كان من أهل الصّلاة فهو من أهل الوعيد ومن أهل النّار، وأنّه إذا لم يتب ومات على ذلك فهو في الجحيم لا يغيب عنها، و ذلك يدلّ على الخلود؛ لأنّهم إذا لم يغيبوا عنها و لاحقهم موت وقتا، فليس إلّا العذاب الدّائم."(القاضي عبد الجبار، د.ت)

أمّا عند أهل السنّة قولهم الفجّار ليسواهم الكفّار. فالخلاف في دلالة لفظة الفجّار بين احتمال استغراقهم في الكفر، أم العصاة أصحاب الكبائر من المسلمين، وهو ما يوضّحه الرّازي في معرض ردّه على المعتزلة الّذين يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النّار لكونهم من الفجّار:"إنّ دلالة الألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنيّة ضعيفة والمسألة قطعيّة. والتمسّك بالدّليل الظنّي في المطلوب القطعي غير جائز، بل هاهنا ما يدلّ على قولنا: لأنّ استعمال الجمع المعروف بالألف واللّام في المعهود السّابق شائع في اللغة، فيحتمل أن يكون اللّفظهاهنا عائدا إلى الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم من المكذّبين بيوم الدّين، سلمنا أنّ العموم يفيد القطع، لكن لا نسلم أنّ صاحب الكبيرة فاجر، والدّليل عليه قوله تعالى في حقّ الكفار﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[عبس42]الّذين يكونون من جنس الفجرة و المراد "أولئك هم الكفرة"؛ وهم الفجرة. وضمير الفصل عائد عليهم والأوّل: باطل لأنّ كلّكافر فهو فاجر بالإجماع، فتقييد الكافر بالكافر الّذي يكون من جنس الفجرة عبث، إذا بطل هذا القسم بقي الثاني، وذلك يفيد الحصر، وإذا دلّت هذه الآية على أنّ الكفّار هم الفجرة لا غيرهم، ثبت أنّ صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق."(الرازي، 1420)

2.2. **القطعبالنفي**:ويقصدبهاستعمالالنّفيوتأكيدهمنخلالأدواتالنّفي،منهقولهتعالى:﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[البقرة48].فالآية من وجهة نظر أهل الاعتزال تدلّ على أنّ من استحقّ العقاب لا يستحقّ شفاعة النّبي صلى الله عليه و سلّم، ولا ينصره لأنّ الآية وردت في صفة اليوم ولا تخصيص فيها، فلا يمكن صرفها إلى الكفّار دون أهل الثواب، وهي واردة فيمن يستحقّ العذاب في ذلك اليوم، لأنّ هذا الخطاب لا يليق إلّا بهم، فليس لأحد أن يطعن على ما قلناه بأن يمنع الشّفاعة للمؤمنين أيضا، ولو كان النّبي صلّى الله عليه وسلّم يشفع لهم لكان قد أغنى عنهم وأجزى،فكان لا يصحّ أن يقول تعالى ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، و لما صحّ أن يقول﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ لأنّ قبول الشفاعة و إسقاط العقاب أعظم من كل فداء يسقط بما استحقوه..و لما صحّ أن يقول ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾،و أعظم النّصرة تخلّصهما من العذاب الدائم بالشّفاعة. فالآية دالّة على ما نقول من جميع هذه الوجوه"(القاضي عبد الجبار، د.ت)

ويذهب الزمخشري [ت 538هـ] مذهبه؛إذ يقول:"ومعنى التنكير أنّ نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس شيئا من الأشياء والإقناط الكلّي القاطع للمطامع، وكذلك قولهتعالى﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي؛ فدية لأنّها معادلة للمفدي"(الزمخشري، د.ت) على أنّ الزمخشري يؤوّل دلالة الشفاعة في هذه الآية بمعنى الفدية.

إلّا أنّ السيوطي يرفض هذا التأويل الاعتزالي بناء على تأويل الزجّاجي بأنّ الآية وردت في سياق خاص باليهود فقط؛ إذ "كانت اليهود تزعم أنّ آباءها الأنبياء تشفع لهم يوم القيامة فأيّسهم الله بهذه الآية، وتجزي بمعنى

تقضي. قال ابن قتيبة: يقال جزا الأمر عنّي يجزي بغير همز أي؛ قضى عنّي أجزاني يجزئني، مهموز أي؛ كفاني.قوله تعالى: ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ قالوا المراد بالنّفس ها هنا النّفس الكافرة، فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص."(السيوطي، 1433هـ) ويقصد بالخاص هنا نفي الشفاعة لفئة مخصوصة وهم اليهود الكفرة المغضوب عليهم.

3.2. دلالةالظالم:في اللّغة العربيّة يقترن الظّلم بالذّنوب و المعاصي، و تستوجب التّوبة. فالظّالم من وجهة نظر المعتزلة يستحقّ العقاب و لا تستوجب له الشّفاعة. لهذا عندما تطرّق شيخ المعتزلةلقوله تعالى:﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر18] قال: "إنّ الله بيّن في هذه الآيةأنّ الظّالم لا يشفع له النّبي صلى الله عليه وسلّم، وأنّ الشّفاعة لا تكون إلا للمؤمنين لتحصل لهم مزيّة في التفضّل وزيادة في الدرجات مع ما يحصل له صلى الله عليه وسلّم من التعظيم والإكرام.(القاضي عبد الجبار، د.ت)فالظالم تسحب منه صفة الإيمان و بذلك لن يدخل في حيز المؤمنين ولن ينال نصيبه من الشفاعة.

وقد ذهب الإمام الباقلّاني إلى أنّ الظّلم الوارد في هذه الآية معناه الكفر.(الباقلاني، 1412هـ) واستدلّ بقوله تعالى:﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان13]. وممّا يدلّ على صحّة ما ذهب إليه الباقلّاني بقوله تعالى في نفي الشفاعة عن﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة245]فإنّهتعالىلمّاقال ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾أوهمذلكنفيالأخلّةوالشّفاعةمطلقا،فذكراللهعقبيه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ليدلّعلىأنّذلكالنّفيمختصّبالكافرين. وعلىهذاالتّقديرتصيرالآيةدالّةعلىإثباتالشّفاعةفيحقّالفسّاق.(الرازي، 1420)فالرّازي يخضع الأمر للمنطق"فلفظ الظّالمين؛ إمّا أن يدلّ على الاستغراق، وإمّا ألّا يدلّ عليه. فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظّالمين مجموعهم، ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفّار، وليس لهم شفيع، فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع. وإن لم يفد الاستغراق؛ كان المراد من الظّالمين بعض من كان موصوفا بهذه الصفة، وعندنا،أنّ بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم، وهم الكافرون؛ وإذا فعلى كلا الاحتمالين فليس في الآية دلالة على نفي الشّفاعة لأصحاب الكبائر."(الرازي، 1420)

ويقوّي رأيه هذا بحجة "أن الله تعالى نفى في الآية شفيعا يطاع، وهذا لا يدل على نفي الشفيع، فنفي الشفيع المطاع لا يقتضي نفي الشفاعة، وعلى هذا فما من آية إلا وهي مرتبطة بنفي متقدم واستثناء تعقيب، والاستثناء تخصيص فيكون المنفي من الآيات هو الأصل العام، والإثبات استثناء خاصا، فيخص العام بالخاص.(الكبيسي، 1995)

وهذا ما لم يوافقهم عليه أهل السنّة والجماعة، فقد اتفق الصّحابة والتّابعين لهم وسائر أئمّة المسلمين على أنّه لا يخلّد في النّار أحد في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.(ابن تيمية، 1433)وذلك لأنّ أهل السنة لا يخرجون من الإيمان مرتكب الكبيرة كالمعتزلة، بل إنّ مرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم.(ابن تيمية، 1996)وأنّه في الآخرة إن مات دون توبة فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عاقبه وعذّبه مدّة بعذاب النّار، وإذا عذّبه لم يخلد فيها، بل أعتقه منها إلى الجنّة. وفي هذا يقول

البوطي:" الشّفاعة في الحقيقة مظهر من مظاهر رحمة الله عزّ وجل لمن شاء من عباده في ذلك الموقف ويتجلى هذا المظهر بأشكال مختلفة، فمنها أن يغفر الله لمن يشاء من عباده العصاة ما لم يكن من أهل الكفر أو الشرك، وفي إيضاح هذه الحقيقة يقول الله عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.(البوطي، 1997) ويضيف في موقع آخر، "غير أنّ هذه الشفاعة، إنّما هي كما قلت لك، مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده الّذين شاء لهم المغفرة، ولكنّها اتخذت هذا الشّكل تكريما لرسله وأنبيائه وبعض الصالحين."(البوطي، 1997)

خاتمة:

سيّرت مقالتي قراءة منفتحة على موضوع عقائدي تنافس فيه المتجادلون، وظل مثارا متجددا للتحليل والدراسة، وهي الفائدة المركزيّة التي عنتها هذه الدّراسة التي من محصّلاتها المركزيّة:

-أنّ النص القرآني نص حمّال أوجه، فهو خطاب الوحي وخطاب العقل الّذي لم تنقض أسراره، وموضوع الشفاعة غرض معرفيمتعدد المشارب، لمينته الباحثونمن القطع فيه.

- يجب الاعتراف أن اللغة وحدها عاجزة عن حل شيفرة موضوع الشفاعة ، و أن التأويل تتدخل فيه أطراف أخرى توجهه حسب مقاصدها و غاياتها حتى أوقعته في مأزق التشتت .فحريّ بنا أن نلج إلى هذا الموضوع من زاوية أخرى و إخضاعه لقراءات أخرى من مثل دور السياق الثقافي في مساءلة جدليّة الشّفاعة من مقصديّة الاثبات و النفي. فتفعيل آليات هذه القراءة في مطارحة هذا الموضوع يكون إضافة مهمّة.

- أن الفكر العربي قديما ظلّ مرتهنا للتعارض المنهجي، في مواجهة بين سلطة النقل وسلطة العقل، وهما منهجان أصّلا للدرس العلمي بتفرعاته المختلفة.

- تجاوز تحليل خطاب الشّفاعة البيئة الفكريّة المذهبيّة التراثيّة القديمة إلى رؤى فكريّة أخرى، نشّطها التفاعل العلمي الحديث من خلال التساند إلى ما قدّمه الدّرس التفسيري المعاصر وما أجادت به نظريات القراءة والبحث في علوم النفس والاجتماع و الانثروبولجيا.

قائمة المراجع:

1. ابن العثيمين. (1424هـ). *القول المفيد على كتاب التوحيد* (الإصدار 2). السعودية: دار ابن الجوزي.
2. ابن تيمية. (1433). *الايمان* (الإصدار 5). بيروت: المكتبة الاسلامية.
3. ابن تيمية. (1996). *العقيدة الواسطية*. السعودية: مؤسسة الدرر السنية.
4. ابن تيمية. (2005). *مجموع الفتاوى الكبرى* (الإصدار 3). دار الوفاء: الاسكندرية.
5. ابن جنّي. (1999). *المحتسب*. المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية.
6. ابن منظور. (د.ت). *لسان العرب*. دار صادر: بيروت.
7. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ابن فارس. (د.ت). *مقاييس اللغة*. بيروت: دار الفكر.
8. أبو السعود. (د.ت). *إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

9. أبو حيان الأندلسي. (2001). *تفسير البحر المحيط*. بيروت: دار الكتب العلمية.
10. أحمد سعد محمد. (1997). *التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية*. القاهرة: مكتبة الآداب.
11. الألوسي. (د.ت). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني* (المجلد 18). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
12. الباقلاني. (1412هـ). *الإنصاف*. القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث.
13. الجوهري. (1987). *الصّحاح تاج اللغة العربية* (الإصدار 4). بيروت: دار العلم للملايين.
14. الرازي. (1420). *مفاتيح الغيب*. بيروت: إحياء التراث العربي.
15. الزركشي. (1957). *البرهان في علوم القرآن* (الإصدار 1). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
16. الزمخشري .(د.ت.)*الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل*بيروت :دار المعرفة.
17. السيوطي. (1433هـ). *تفسير الدرر المنثور في التفسير المأثور*. بيروت: دار الفكر.
18. الشهرستاني. (1317هـ). *الملل و النحل*. مصر: المطبعة الأدبية.
19. الشوكاني1414) .هـ .(*فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير*.بيروت :دار ابن كثير.
20. الفراهيدي. (د.ت). *العين*. القاهرة: مكتبة الهلال.
21. القاضي عبد الجبار. (د.ت). *المغني في العدل و التوحيد* (المجلد 16). بيروت: دار الكتب العلمية.
22. القاضي عبد الجبار. (د.ت). *متشابه القرآن* (الإصدار 2). القاهرة: دار التراث.
23. محمد الطاهر ابن عاشور. (1984). *تفسير التحرير و التنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.
24. محمد سعيد رمضان البوطي. (1997). *كبرى اليقينات الكونية: وجود الخالق و وظيفة المخلوق*. دمشق: دار الفكر.
25. محمد عيّاش الكبيسي. (1995). *القرآن الكريم و مناهج المتكلمين* (الإصدار ط1). بغداد: وزارة الثقافة و الإعلام.
26. مصطفى محمود. (1999). *الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين و المعارضين*. مصر: قطاع الثقافة.